الرمزية في حياتنا اليومية

أ.د/ عادل كمال خضر
وكيل كلية الآداب ـ جامعة بنـــها
لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة

الرمـز ***Symbol*** فـي اللغـة العربيـة يعنـي الإيمـاء والإشـارة ، والرمزيـة فـي الأدب والفن مـذهب، ظهـر فـي الشـعر أولاً ، يقـول بـالتعبير عـن المعـاني بالرموز والإيحاء ، ليدع للمتذوق نصيباً في تكميل الصورة أو تقوية العاطفة ، بما يضيف إليه من توليد خياله .. والرمز في معناه العام هو أي شـيء يُحِيل إلـى شـيء آخـر ، أو يقـوم مقامـه أو يـدل عليـه.. فماهيـة الرمزيـة تتلخص في إدراك أن شيئاً ما يقف بديلاً عن شـيء آخر أو يحل محلـه أو يمثلـه بحيث تكـون العلاقـة بـين الاثنـين هـي علاقـة الملمـوس أو المشخص العياني بالمجرد ، أو علاقة الخاص بالعام ، وذلـك علـى اعتبـار أن الرمز هو شـيء لـه وجـود " حقيقـي " مشـخص ولكنـه يرمـز إلـى فكرة أو معنـى مجرد . فـالميزان مثـلاً يرمـز إلـى العدالـة ، والحمامـة ترمـز إلـى السـلام ، والأسـد رمـز للشـجاعة ، والثعلـب رمـز للخـداع ، والبومـة رمـز للشـر .. والخلاصـة أن الرمـز هو كـل مـا يحـل محـل شـيء آخـر فـي الدلالـة عليـه ، لا بطريـق المطابقـة التامـة وإنمـا بالإيحـاء أو بوجود علاقة عرضية أو متعارف عليها.

ويميـــز العلمـــاء بـــين الرمـــز ***Symbol*** والعلامـة ***sign*** ، حيث يـرى أغلـب العلمـاء الـذين تعرضوا لهذه النقطة أن الرمز يتميز عن العلامة بأنه يشير إلى مفهومات وتصورات وأفكار مجردة ، بينما تشير العلامة إلى موضوعات وأشياء ملموسة ، أو على الأقل إلى أمور أدنى في درجة التجريد .. والمحك الأساسي في التمييز بين العلامة والرمز هو عمليـة الإدراك ، فالعلامـة يمكـن إدراكهـا حسـياً بسـهولة بعكـس الرمـز الـذي يحتـاج إلـى عمليـة فكريـة أكثـر تعقيـداً بكثيـر مـن الإدراك الحسـي . ومفهوم الرمز أوسع وأشمل من الإشارة ، ذلك أن الإشارة ليس لها سوى دلالة واحدة لا تقبل التنويع ، ولا يمكن أن تختلف من شخص لآخر مادام المجتمع قـد اتفـق علـى دلالتهـا – فالمصـباح الأحمـر فـي الطريق تعارف الناس على أنه إشارة إلى معنى (قف) وليس معنى آخر – بينما الرمز يتسع ليشمل دلالات متعددة .

ويعد الكائن البشري مميزاً باستخدام الرمزية ، والتي تعد اللغة أهم قنواتها ، فاللغة بهذا المعنى هي النسق الرمزي الرئيسي الذي يحقق تلاحم الإنسان بهذا الواقع ووحدته مع أبناء مجتمعه .. ولقد ميز العلماء بين اللغة والكلام ، باعتبار أن اللغة نظام عقلي إنساني له مفرداته ونحوه ، بلاغته وصرفه وبنيته ، أما الكلام فهو تطويع الفرد لهذا النظام واستخدامه إياه في كلامه .

وعن العلاقة بين الرمز والكلام ، يرى العلماء أن الرمـزَ هـو مـا أُخْفِـيَ مـن الكـلام ، وأن المـتكلم يستعمل الرمز فيما يريد طيه عن بعض الناس . وبنـاء علـى هذا فـالرمز لا يكـون لكـل الكـلام بـل لبعضـه ، ممـا يـدعونا إلـى أن نميـز بـين مسـتويين

من الرمزية في الكلام ، هما : الرمز بمعناه العام (وهو الكلام في مجمله) ، والرمز بمعناه الدقيق (وهو ما يكون وراء الكلام الظاهر من معنى مغاير) . وهذا ما نجده في رأي الصوفية ، فالرمز عند الصوفية " معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر، لا يظفر به إلا أهله "، وهو الكلام الذي يعطي ظاهره ما لم يقصده قائله ، وهذا ما يعبر عنه كذلك أبو حيان التوحيدي في قوله : " هذا رمز وراءه رمز ، وإشارة فوقها إشارة ، وعبارة حولها عبارة ، ولكن التقي ملجم ، ولابد من بعض السكوت ، كما أنه لابد من بعض القول " (أي كون الرمز حل وسط بين الكلام والصمت) .

والرمزية في حياتنا تمتد عبر عادات وتقاليد راسخة تميز ثقافتنا العربية ، باختلافات الثقافات النوعية لكل مجتمع ، فنحن نؤمن بالحسد ، ونجد أنه في بعض الثقافات يتم استخدام بعض الرموز لدرئه ، مثل رش الملح في الأفراح والسبوع ، وتعليق الكف على باب المنزل ، أو طبعه على المنزل والسيارة الجديدة ، واستخدام تعبير خمسة وخميسة ، وتخريم وحرق عروسة الحسد ..الخ . كما أننا نستخدم الرمزية في حديثنا عند استشهادنا بكثير من أمثالنا الشعبية .. أو التعبيرات الدارجة ذات الدلالة المتفق عليها لوصف شخص ما بأنه ثعبان ، أو ثعلب ، أو سبع أو ضبع .. الخ .. وفي الفن التشكيلي تتعدد الرموز المستخدمة من قبيل استخدام الحمامة رمزاً للسلام ، والكبش رمزاً للفداء ، والصقر رمزاً للرفعة ، والأسد رمزاً للقوة ، والسيف رمزاً البطولة ، والثعبان رمزاً للغدر أحياناً ورمزاً للترياق أحياناً أخرى ، وترسم السمكة كرمز للخير ، والجمل " والسفينة والطيارة " للتعبير عن العودة من الحج ، وغصن الزيتون إشارة للسلام ، إلى آخر ذلك من رموز عديدة ..

وفي حياتنا اليومية نجد أيضاً أن بعض الولائم تكتسب معاني رمزية متباينة ، إلى جانب كونها مشاركة في لذة الطعام ، ذلك إن تقديم الطعام هو أول تعبير عن الحب يفهمه الطفل ، وهو مدخله إلى الحب لذلك تظل قيمة الطعام الرمزية عالية طيلة الحياة . وفي اللاشعور " الطعام = الحب " ، وقد يعبر الأشخاص عن كراهيتهم للآخرين بشكل رمزي . ويتضح ذلك في قيام البعض بحرق الدمي التي تمثل شخصاً ما ، أو يشيعون جنازة وهمية له ، وكذا قيام البعض بحرق علم الدولة المعادية ووطأه بالأقدام ، وبهذه الطريقة ينفس هؤلاء الأشخاص عن كراهيتهم ورغباتهم العدوانية تجاه هذا الشخص وهذه الدولة في صورة رمزية ، فيتحقق لهم بعض الرضا .. فتحقيق الرغبات عبر الرمز وإن كان غير حقيقي إلا أنه يعيد الاتزان النفسي للمرء لخروج الرغبات المقموعة والتنفيس عنها . والرموز بهذا مفيدة للإنسان ، فهي حلول وسط يرتضيها الإنسان إن لم يستطع الوصول إلى مبتغاه عبر الواقع الفعلي .

وكثيرة هي التعبيرات الرمزية في حياتنا اليومية ..

خالص تحياتي
أد. عادل كمال خضر
E. mail : adelkhedr@fart.bu.edu.eg